

# اصل نظرية الاضداد في اللغة العربية

للمستشرق الفرنسي : ر. بلا شير  
ترجمة : حامد طاهر (باريس)

اللحظة فقط ، لم يعد مبحث الاضداد يقوم على مواد اصلية ، وانما على مصنفات قديمة ، تمت من قبل . وعلى العموم ، فمن الناحية الجغرافية ، يحق القول بان الدراسة عراقية ، او على الاقل : في بدايتها .

اما من ناحية التسلسل التاريخي ، فيجب وصفها في السنوات العشر الاخيرة من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) وعلى امتداد عشر السنوات الاولى من القرن الثالث . وتعتمد هذه التحديدات على اسماء المؤلفين انفسهم ، مؤلفي المعاجم والنحاة ، الذين اهتموا بمبحث الاضداد . فالاصمعي في البداية ، ومواطنه ومعاصره ، ابو زيد الانصاري ، ثم قطرب (التومى 206 هجرية) ويعتبر هذا الاخير اكثر اهمية ، مع ان شخصيته ليست معروفة لنا تماما ، غير ان هناك مصدرين مختلفين ، لا يوجد لدينا ادنى شك في وثاقتهما ، يؤكدان انه كان من «المعتزلة» وهذه حقيقة مهمة ، سوف اعسود اليها بعد قليل .

ثم في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، نلتقى بشخصية قوية جدا ، هي شخصية ابن السكيت ، صاحب المؤلفات القيمة الكثيرة التي تناولت جوانب متنوعة ، وخاصة ما يتعلق منها بالدراسات المعجمية . ونحن نعلم انه قد اهتم كثيرا بالاختلاف بين الفروق المعنوية للالفاظ ، وانه صاحب كتاب «اللغة» الذي يعتبر دراسة لقيم المصطلحات الداخلية .

لكي يتجه بحثنا نحو آفاق جديدة لم تكشف بعد ، نهذه عدة افكار نجبت عن فحص لقوائم الاضداد في اللغة العربية والواقع انها افكار قليلة ، لان ما جمعناه ، مع الاسف لم يكن غزيرا ، كما انه لم يعتمد على التصنيف الذي قام به حاليا عدد من المستشرقين ، وانما على اصل مبحث الاضداد وتاريخه لدى العرب انفسهم ، وعلى العموم ، سوف نتحصر دراستنا على المستوى الذي تطور فيه ذلك المبحث ، وكذلك محاولة ادراك الدوافع الذي كانت وراءه ، وفيما يتعلق بهذه النقطة الاخيرة لا يوجد لدينا ، بطبيعة الحال ، سوى التخمينات والفروض .

واذن فلنحاول اولا ان نحدد المجال من الناحية المكثية والجغرافية . فلقد بدا مبحث الاضداد من العراق ولاشك ، وخاصة من مدينة البصرة ، حيث كانت الدراسات النحوية مزدهرة . وفيما يبدو ، لم تكن المسألة مفروضة بصورة ملحة حتى تهتم بها مثلا مدرسة الكوفة ايضا . مع انه ينبغي ملاحظة ان احد العلماء العرب الذين سوف نذكرهم هنا ، يتبع ، في الوقت نفسه ، كلا من مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة ، وهذا هو ما كان شائعا في ذلك العصر .

ثم تتابع البحث في بغداد ، لكنه لم ينحصر فيها اكثر من القرن الحادي عشر الميلادي ، فنحن نسراه نشيطا جدا خارج العراق ، ومن الواضح انه في تلك

وتظهر شخصية أخرى تحتل مكان الصدارة ، هي شخصية ابن الأثيري ، لكن يوجد هنا خطأ . فالواقع أن هناك شخصين مختلفين يحملان اسم ابن الأثيري ، والذي يهنا هنا هو المتوفى (323 هـ = 934 م) . أما الآخر فهو أبو البركات ابن الأثيري ، الذي سوف يهتم أيضا ، فيما يبدو - لاتفى غير متأكد تماما - بمسألة الأضداد . وقد عاش هذا الأخير في نهاية القرن الرابع وبداية الخامس الهجريين . ثم بالتقائنا بعد ذلك بابن درستويه (ت 347 هـ = 958 م) نجد أنفسنا أمام «جَمَاعين» أو «مصنفين» يعيدون تناول أعمال «الأوائل» بترتيبها أو شرحها . وأنا الح على هذه النقطة .

وهكذا فقد أظهرت دراسة تتابع المؤلفين في مبحث الأضداد : ضرورة التفرقة ، بعناية بالغة ، بين جيلين مختلفين : الأول هو جيل الأصمعي والانساري وقطرب : جيل يعمل على مواد لغوية خام ، يلتقطها ويدرسها ، والثاني جيل يبدأ بالأثيري ، وخاصة ابن درستويه ، ولا يعالج سوى مادة معدة سلفا ، (فيما يتعلق بابن السكيت ، لا يبدو الأمر هكذا تماما ، فلدي شعور بأنه كان أصيلا في مجالات أخرى ، لكن العناصر المحددة تموزني) . هذا إذن فيما يخص الناحيتين : المكائنية والزمانية . تبقى المشكلة الأساسية ، وهي الدافع الذي أدّى بهؤلاء العلماء والمعجميين العرب الى ارتياد مجال الأضداد : أي افتراضات يمكن أن تطرح ؟

من الطبيعي ، أن الفكرة الأولى التي ترد الى الذهن هي أن الأمر لا يعدو أن يكون بحثا اعتباطيا ، نشأ نتيجة مجرد «الفضول العلمي» لمعرفة الاحداث اللغوية ، ولا يبغي استبعاد هذا الفرض الذي يمكن أن يكون ملائما بدرجة كبيرة ، فقد كان «الفضول العلمي» أو «حب الاطلاع» إحدى المميزات التي طبعت ذلك الجيل الرائد ، وبخاصة الأصمعي والانساري ، فقد كان هؤلاء العلماء ذوي اهتمامات متنوعة جدا ، واستطاعوا أن يقتحموا هذا المجال ، كما اقتحموا مجالات أخرى غيره . لجرد الرغبة في الاطلاع . ومع ذلك ، يمكن القول انه بالنسبة لهؤلاء العلماء ، في هذا الصدد ، كما لدى غيرهم في مجالات أخرى ، لا توجد لدينا الوثائق التي يمكنها أن تخبرنا عن حقيقة اهتماماتهم الباطنة ، ولا يعدو ما بين أيدينا من أن يكون مجرد ملاحظات بيوجرافية ، جافة للغة ، ولا يمكن أن نستخلص منها اتجاها مؤكدا ، حتى عندما تشير إحدى هذه الملاحظات الى أن واحدا مثل قطرب كان من المعتزلة !

فرض آخر أكثر أهمية ، وهو يرد عرضاً بمناسبة عبارة جاءت في مقدمة الأثيري عن الأضداد ، حيث يذكر أن تلك الالفاظ ، ذات الدلالات المختلفة أو المتعارضة ، تعتبر بالنسبة الى بعض الناس دالة على «النقص» أي الضعف أو الخطأ في اللغة العربية ، التي تعد حينئذ غير قادرة على التعبير بشكل واضح ومحدد عما يراد منها ، فَمَنْ هم هؤلاء «البعض» الذين يهتمون العربية على هذا النحو ؟ يفهم الأثيري بأنهم «أهل البدعة» وكذلك «أهل الجور» و «الضلالة» و «الاستهزاء» أي السخرية . - أولئك الذين كان من شأنهم أن يسخرُوا من العرب ، وابتداء من هذه العبارة ، يمكن التساؤل عما إذا كانت بداية الأضداد قد جاءت نتيجة اتهامات مختلطة ، وذلك فيما يتعلق بموجة «الشعوبية» التي كان هدفها اظهار نقص لغة الفاتحين والحكام ؟ إن بقية عبارة الأثيري تبين كيف أمكن لهذا الدليل الموجه الى اللغة العربية أن يتحول على أيدي المدافعين عنها الى دليل في صالحها . فليس وجود الأضداد بحال ما من عوامل الغموض ، كما يدعى المفترون ، وإنما هو أحد عوامل الغنى : انه إحدى مرائد اللغة العربية . لان اللفظ اذا كان له معنيان متضادان عموما ، فهو في نص واحد بعينه ، لا يدل الى على معنى واحد فقط منهما . وبذلك فلا مجال لأي غموض في التعبير عن الأفكار .

وحول هذه النقطة ، يوجد لدينا نص آخر هام . لكنه أقل وضوحا ، ذلك هو ما يلخص رأي ابن درستويه ، فهو يعارض تماما نظرية الأضداد ، وينفى أي وجود لها في اللغة . وهنا ينبغي الاعتراف بأن الأمور تتعمد ، فابن درستويه من أصل فارسي ، وإذا كنا قد قبلنا أن الأمر يعني هجوما من الشعوبية ضد الناطقين بالعربية ، فيمكن التساؤل : لماذا يتخذ هذا الفارسي ذلك الموقف الناقب بصورة قاطعة على هذا النحو ؟ غير أن الأمر يمكن أن يندرج ببساطة في ظاهرة عامة ، غالبا ما نلتقي بها في تاريخ الإسلام : وهي «مَرُوط العروبة» لدى عدد كبير جدا من «غير العرب» فيما يتعلق بالتمسك باللغة العربية والدفاع عنها . وأكبر مثال على ذلك هو «ابن قتيبة» ، ذو الأصل الفارسي ، والذي عاش في بيئة فارسية ، ثم أصبح هو المدافع الفيور عما أمكن أن نطلق عليه فيما بعد ذلك بوقت متأخر «الزعة العربية» أو «المروية» .

كذلك التقينا خلال استقراءنا بفقرة هامة جدا ، حيث لم يأخذ فعل (خاف) معنى (خشى) وإنما معنى (تأكد من) . وذلك فيما يتعلق بالآية القرآنية التي تتحدث عن النساء اللاتي يخشى أزواجهن نشوزهن (سورة النساء - الآية رقم 34) . فعلى الرغم من أن الآية تحتوي على فعل (خاف) الذي يعني بكل بداهة (خشى) - نجد أنه - ربما لأسباب فقهية حيث يحتاج كل حكم إلى دليل في الخلاف المثار - يأخذ معنى (تأكد من) وبذلك لا يكتفى الزوج أن يخاف ، وإنما يصبح متأكدا . . .

مثال آخر من نفس النوع ، وهو الخاص بفعل (ظن) ، ففي المفهوم العادي يأخذ الفعل معنى (التفكير بتردد بين أمرين) ، ولكن المفسرين يعطونه في آيات أخرى من القرآن معنى (لديه يقين) منتزعين منه أى إمكانية في التردد بين أمرين . . .

والواقع أن هذه الالفاظ - الأضداد ، الواردة في القرآن ، تعتبر في مجموعها بسيطة جدا ، لكن التفسير الح عليها وأفسدها لكى يجعلها تعبر عن أمر ذى علاقة بها ، وليس من حقيقتها الحية في اللغة ، لان الذى كان يهيمه هو تعضيد هذا الفرض أو ذاك . . . فكثيرا ما نلتقى في التفسير بآية قرآنية مفسرة بمعنى ، ثم في موضع آخر بمعنى معارض له تماما . ومن الغريب أن كلا التفسيرين يجرى تحت سلطة طائفة واحدة . وكان من يحاول ابطال تفسير من هذا النوع ، يتعرض لاتهامه بالبدعة ، ومخالفة أهل السنة ، وربما عرض حياته نفسه للخطر :

واذن ، فهل تتبع ظاهرة الأضداد ، كتعبير عن الخلاف بين أهل السنة و المعتزلة ، النقاش الدائر في محيط علم الكلام ؟ هنا تبدو إمكانية ارتياد هذا البحث .

وهكذا حاولت في تعداد الدوافع لمبحث الأضداد ، أن أضع هذا البحث في أفضل مكان له ، في المستوى الدينى الذى بدأ منه ، وأنه فلينتشر البحث الى مصطلحات أخرى غير تلك المصطلحات العادية التى ذكرناها من أمثال (ظن وخاف وأسر) ، ومع ذلك ، فإن الفرض المعتزلى يظل فرضا خالصا .

ينبنى ان يتجه البحث ناحية التفسير المعتزلى الخالص ، وليس فقط كما حدث بالفعل لدى فخر الدين الرازى ، الذى تعرض دون شك لثأير المعتزلة ، وان كان أحيانا يستخدم براهينهم ضدهم ، كما يجب ان يتجه

ومع ذلك ، فإن ماسبق يجعلنا نحتفظ فيما يتعلق بالفرض الثانى الذى طرحناه ، لانه من الصعب عملا الاعتراف له بقاعدة صلبة ، واهتقد أننا ينبغي ان نستبعد وبالتحديد بناء على ملاحظة الانبارى التى يذكر فيها أن الأضداد كانت ذريعة للهجوم على اللغة العربية . وهنا يوجد واقع ذو طابع شعورى استطاع ان يلعب دوره . فمالى أى حد لا يبقى مجال البحث موضحا . . .

مرض ثالث ، ظهر لنا انه يستحق الكثير من الاهتمام ، وقد جعلنا نقوم بإجراء عدة استقراءات ، ليست كثيرة مع الأسف ، كما كان ينبغي أن يحدث ، لكنها ليست أقل من أن تقدم بعض النتائج ذات الدلالات الخاصة : بما أن تطريا ، الذى يعتبر من أهم منسئى هذا البحث ، كان معتزليا ، فقد تساطنا عما اذا كان ينبغى البحث عن اصل هذا البحث في التفسير الدينى ، وبصفة خاصة لدى المعتزلة . لقد قام دأثيد كوهين بجمع كل الأضداد الواردة في القرآن ، وأمكن أن تبرز ملاحظة هامة : فبقدر ما تم من تحقيقات ، وبما أنها من الطبيعى محدودة جدا وبمعثرة ، يبدو (وأنا أصر على كلمة : يبدو) أن أهل السنة لم يهتموا كثيرا بهذا الجانب في أثناء تفسيرهم للقرآن .

وهكذا نلاحظ عند الطبرى ، أكبر مفسرى أهل السنة ، صمتاً مطلقاً حول آية ، سوف تكون على العكس مجالا لرسالة طويلة لدى فخر الدين الرازى . وهذا فيما يتعلق بفعل (أسر) الوارد في الآية (رقم 52 سورة يونس) (وأسروا الندامة لما راوا العذاب) فالشركون أو الذين ظلموا يتقبلون العذاب الذى يستحقونه في يوم الحساب ، وعندئذ تقول الآية (وأسروا الندامة) أسر : معنى أخفى في أعماق قلبه أو كتم ، وهذا في الواقع هو المعنى الذى ندرسه لأول وهلة ، وهو المعنى الذى فسره الطبرى دون أن يقف عنده طويلا ، لكنه لدى المفسرين الآخرين ، يتحول من «أخفوا الندم في نفوسهم» الى «أظهروا الأسف والتوبة» وهذا منطقي . لان هؤلاء المشركين المحكوم عليهم بالعذاب ، يتأسفون بصورة طبيعية في تلك اللحظة الهائلة من أنهم لم يسلموا أو يؤمنوا . وهكذا ، في الوقت الذى لم يشر الطبرى بكلمة واحدة الى هذا الموضوع ، نجد فخر الدين الرازى (القرن السابع / الثامن الهجرى) يقدم لنا شروحا مفصلة حول مفهوم «الضد» ، ويؤكد أن فعل (أسروا) في الآية يدل على معنى (أظهروا وأعلنوا) بصورة طبيعية، وأنه يحمل أيضا في المقابل معنى (أخفوا وكتموا) .

العبارة العربية الجيدة « مشرب بحمرة » ! لكن هناك بيتا للفرزدق يصف فيه قصرا فيقول « وجون عليه جص » أى : شيء اسود مطلقا بجص ! وقال النحويون ! ان الناس ليعتقدون ان هذا يدل على الابيض . لكنهم لم يفهموا ان هذه هى الحالة « الاشد تطابقا » على مفهوم التضاد .

ومع ذلك ، فلا يعنى الامر ان دافع التفسير كان هو الوحيد . لقد وجد بجانبه تلك الدوافع الأخرى التي نكرناها : حسب الاطلاع ، وضرورة الرد على افتراءات الشعبيية ، وانا اعتقد ان الامثلة التي اوردها ذات دلالة كافية ، فالذى يبدو بوضوح ، انه في مجال التفسير ، كلما تمسكنا بالمعنى الحرفى للنص ، لا تبرز امامنا مشكلة التضاد ، لكن عندما ندخل اعتبارات لا علاقة لها بالمعنى الخام الاولي للنص ، فاننا نجد انفسنا مضطرين الى وضع تفسيرات أخرى ، فلماذا انن نترك هذا الجانب الملائم من التفسير ؟

وحاصل القول انه في آية (اسروا الندامة) مثلا ، يبدو أكثر منطقيا وملائمة لخط التناسق القرآنى بصفة عامة ، ان نعطي فعل (اسرو) — على الرغم من الوضوح المعجبى له — معنى يختلف عن «كتبوا في أعماق قلوبهم» !

البحث أيضا الى التفسير الظاهري ، وخاصة عند ابن حزم ، ومهما يكن من شيء ، فسوف يصبح من اللازم القيام باستقراء شامل للتضاد التي وردت في القرآن ، والسيطرة عليها بمنهج يصنف مظاهرها في كل من الجدل ، والمعاملات ، لكي تتحدد أهميتها ودلالاتها الحقيقية .

### ما النتيجة ؟

على الرغم من نقص دراستنا ، يبدو ممكنا ان نضع كمرض من بين الدوافع التي ادت الى مبحث التضاد : ان جزءا كبيرا منه يرجع الى اهتمامات خاصة بتفسير القرآن ، وانا على علم بان القائمة التي بين أيدينا حاليا تدل على ان مكان التضاد في القرآن لم يدرس بعد .

ومن ناحية أخرى ، فاذا توجهنا الى دراسة التضاد ، فلا بد ان نضع بجانب المصدر القرآنى ، المصدر البدوى الذي خرجت منه كثير من الالفاظ المتضادة ، الخاصة بحياة الصحراء ، وهياتها ، وحيواناتها .

وعلى سبيل المثال ، يتمثل النموذج الكامل للتضاد في لفظة «جون» التي تدل على الابيض والاسود . ففي اللغة الحية نفسها يدل الجون على شيء معتم أو مظلم «ينزع نحو الحمرة» او كما تقول

